العلامة عبد الرحمان الثعالبي
رحلة عِلم وعمل
(القسم الأول)

أ. الصادق دهاش*

هل كان عبد الرحمن الثعالبي الأديب والشاعر والفقيه والصوفي، مؤرّخًا بالمعنى العلمي للكلمة؟ وهل اتبع منهجية تاريخية سليمة، تتلاءم مع شروط التاريخ العلمي الّذي يتوخّى الحقيقة، كل الحقيقة؟ وهل يمكن اعتبار كتاباته، على الأقل، وثيقة تاريخية معتمدة رغم أن قيمة الكتاب التاريخي يختلف من عصر لآخر، وبحسب متطلبات، وتطلعات كل جيل ولون الكتابة التاريخية، والاتجاهات الفكرية المرغوب فيها؟

1. عصره السياسي والثقافي

كان القرن التاسع الهجري، الموافق للقرن الخامس عشر الميلادي، هو العصر التاريخي للعلامة عبد الرحمن الثعالبي، وقد شهد هذا العصر، تحوّلات عميقة، داخل الجزائر وخارجها.

فعلى المستوى الداخلي، عايش الثعالبي، فترة الصراع المرير، الذي شهدته المنطقة المغربية بعد سقوط دولة الموحدين في موقعة حصن العقاب بالأندلس سنة 1212م، وانقسام المغرب العربي إلى دويلات ضعيفة متناحرة هي الدولة الحفصية بتونس (1228-1534م) والدولة المرينية بالمغرب (1269-1550) والدولة الزيانية بالجزائر (1235-1554). فكل دويلة من هذه الدويلات، تدّعي بأحقيتها، في ميراث الدولة الموحدية، ممّا أدّى

* قسم التاريخ، جامعة الجزائر.

بالجميع إلى الضعف والانقسام فكانت نتيجته، بداية التحرش الإسباني والبرتغالي على سواحل شمال إفريقيا، ونظرًا لوجود الزيانيين في الوسط بين الحفصيين شرقًا والمرينيين غربًا، كان عليهم أن يحافظو على توازنهم طيلة كل هذه المدة.

لم يؤثر عدم توفر الاستقرار السياسي، على الازدهار الاقتصادي والثقافي لدول المنطقة فعلى مستوى حركة الأفكار، فقد تميّزت الحياة الفكرية، في القرن التاسع الهجري بنشاط ثقافي مستمر وخاصة تلمسان[1] عاصمة الزيانيين، إلى جانب مدن جزائرية أخرى كبجاية والجزائر وعنابة وغيرها.

وقع تنافس علمي وثقافي كبير بين ملوك المغرب العربي، انتهت هذه المنافسة المحمودة، إلى تنشيط الصرح الثقافي بالمعنى الصحيح، كتقريب العلماء وتشجيع البحوث والاختراعات وبالتالي فإن الثقافة لم تتأثر كثيرًا بالتقلّبات السياسية العصبية، فعمّت المدارس والكتاتيب والزوايا كمراكز إشعاع فكري وحضاري أصيل. فقدِم إلى تلمسان وبجاية، طلاب من مختلف الأقطار العربية الإسلامية للتزوّد من بحور علومها، كما كانت للجزائريين الحرية التامة للتنقل خارج الجزائر لمواصلة دراستهم. وإذا كانت العلوم الدينية، قد نالت الحظ الأوفر، عند مشاهير علماء القرن التاسع الهجري نالت العلوم الأخرى، نصيبًا من اهتماماتهم[2].

زيادة على كون الثعالبي، ينحدر من أسرة ذات حسب، ونسب، وجاه وعلم وثقافة فإن المحيط الداخلي كان مساعدًا له، وسط يجعل من العلم جهادًا في سبيل الله، إلى جانب الإرهاصات الأولى لظهور بوادر النهضة العربية والإسلامية. انطلاقا من كل ذلك، فإن رحلة الثعالبي

---

1. محمود بوعياد، *"جوانب من الحياة في المغرب الأوسط في القرن التاسع الهجري (15م)"*، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1982م، ص:57 ـ 2. نفس المصدر، ص:63.

العلمية، تجاوزت العشرين سنة بكثير إلى خارج الجزائر، فأثر الثعالبي وتأثره بعلماء عصره، في الداخل والخارج، فاستفاد من تجارب أهلها، ولم يكن يدرس العلوم مشافهة (رواية) بل دراسة أيضًا[1].

يكون الثعالبي قد أثّر، تأثيرًا بليغًا، في أتباعه بواسطة ثلاث طرق أساسية: تلاميذه[2] وتآليفه[3]، وزاويته[4]. ولا يفوتنا هنا، الإشارة إلى انتشار حركة التصوف، بشكل جلي، وترك بصماتها على نفسية العامة والخاصة، فانتشرت الرؤى[5] والأحلام والكرامات، والأدعية والأذكار[6]. كانت الجزائر يتجاذبها تياران أو رافدان: رافد الأندلس ورافد المشرق بمسحة مغاربية جزائرية أصيلة.

---

1. أبو القاسم سعد الله، *"تاريخ الجزائر الثقافي"*، 1500ـ1830، ج1، دار الغرب الإسلامي، لبنان 1998، ص:92.
2. أثر عبد الرحمن الثعالبي في تلامذة كثيرين، تتلمذوا عليه بطريقة مباشرة وغير مباشرة نذكر منهم على سبيل المثال : أحمد ابن عبد الله الجزائري الزواوي، وأحمد زروق الفاسي، وعليّ بن محمّد التالوتي، وعيسى بن سلامة البسكري، ومحمّد بن عبد الكريم المغيلي، ومحمّد بن مرزوق الكفيف، ومحمّد السنوسي، ومحمّد السنوسي الامام. انظر: محمّد بن ميمون، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقديم وتحقيق الدكتور محمد بن عبد الكريم، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر1981ص335.
3. اختلف المؤرخون والكتاب في عدد مؤلفات الثعالبي : فقدرها الدكتور أبو القاسم سعد الله بخمسة عشرة، (انظر: أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ج1ص91)، والراجح أنها سبعين مؤلفا. قال بذلك كل من محمّد بن ميمون، مصدر سابق ص341، عبد الرحمن الجيلالي: *"تاريخ الجزائر العام"*، ج2، طبع بدار الثقافة لبنان 1683 ص274 ومحمود بوعياد مرجع سابق ص63، علمًا بأن أغلبها لازالت مخطوطات متناثرة هنا وهناك داخل وخارج الجزائر، تنتظر مَن يعيد بعثها من جديد..
4. أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ج1، ص92 ـ 5. كانت لعبد الرحمن الثعالبي عدة رؤى منها ما يقول فيها "... فبينما أنا نائم سبحان الّذي لا ينام، بعد أن رأيت اثني عشر حزابا من كتاب الله عزّ وجلّ، ثمّ صليت أنا وبعض أخواتي خمسة وعشرين تسليمة كل ركعة بفاتحة الكتاب وقل هو الله أحد، خمسين مرة، ثمّ انطلقت إلى مسجد أبي سفيان وجددت الوضوء ونمت، فإذا برجل أبيض شديد البياض وعليه ثياب بيض فدنا منّي وضربني برجله اليمنى..". عبد الرحمان الثعالبي، رؤية سيّدي عبد الرحمن الثعالبي مخطوط رقم1546 المكتبة الوطنية الجزائرية ورقة2-3 وهو مخطوط يتكوّن من16 ورقة من الحجم الصغير بدون ذكر الناسخ، ونستبعد أن يكون بخط الثعالبي ـ 6. عبد الرحمن الثعالبي، *"العلوم الفاخرة في النظر إلى أمور الآخرة"*، فصل منه فضل الدعاة والأذكار، وفوائد في الاذكار والدعوات، وسائل الحاجات وأدب المناجاة مخطوط، ج 2 رقم:851،المكتبة الوطنية ورقة 148.

2. مولده ونشأته

ينتمي الرحالة الجزائري الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي[1] أبو زيد، إلى قرية بناحية يسر[2] فولد سنة 786 هـ/1385م[3]. والحقيقة هناك تضارب بين المؤرّخين، ففي مخطوطة، العلوم الفاخرة، جاء بأن تاريخ وفاة عبد الرحمن الثعالبي كانت في "سن ثلاث وستين سنة على الصحيح وقيل خمس وستين"[4]، وعليه فإنّني أرجّح تاريخ الوفاة سنة 851هـ/ 1445م.

وممّا يسند ترجيحنا هذا أن الشيخ عبد الرحمن الثعالبي أحسّ بكبر سنّه وهو ابن ثلاث وستين سنة. فهو يقول في مخطوطه "العلوم الفاخرة" الجزء الأول ما نصه: "هذا السيّد عبد الرحمن الثعالبي... لطف الله به الجيل وصار له المقام والرحيل، لمّا وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبًا وبلغتُ من السنين نحوًا من ثلاث وستين وعلمت النّفس الحمام منها علم يقين، وأيقنتُ أنّها راحلة في عسكر الراحلين، شرعتُ في جمع كتاب أجعله تذكرة لنفسي، وأعدّ أنواره لظلم رمسي، في ذكر الموت وما بعده من أمور الآخرة... وابتدأتُ في جمعه وتأليفه في أوائل ذي القعدة من سنة تسع وأربعين وثمان مائة 849هـ ..."[5].

---

1. نسبة إلى الثعالبة وهم سلالة عربية قدمت الجزائر وكوّنت إمارة الثعالبة بمتيجة ساندهم الموحدون وأمّروهم سنة 1153م، على إمارة متيجة ومقاطعة التيطري (المدية)، خرجت إمارتهم على يد سلطان الزيانيين (أبو حمو الأول) سنة 1315م، وبذلك انتهت رئاسة الثعالبة لمتيجة سنة 1378، (انظر: عبد الرحمن الجيلالي، مرجع سابق، ج 2 ص 12-22).
2. مدينة جزائرية تقع جنوب شرق مدينة الجزائر العاصمة بحوالي 80كلم.
3. عبد الرحمن الثعالبي، *"العلوم الفاخرة"*، ج 2، مخطوط مصدر سابق، ورقة 38.
4. عبد الرحمن الثعالبي، *"العلوم الفاخرة"*، ج 2، مخطوط مصدر سابق ورقة 206، بينما أجمعت أغلب المراجع على أن الثعالبي يكون قد عمّر بين 88 سنة إلى 90 سنة، انظر محمّد بن ميمون مرجع سابق ص337، عبد الرّحمن الجيلالي، نفس المرجع، ج 2 ص 275، ويقول أيضًا عادل عبد الرّحمن الجيلالي أنّه إلى غاية 859 هـ كان لا زال حيًا أي في سن 73 سنة، انظر أيضًا عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، من صدر الإسلام إلى منتصف القرن العشرين، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع- لبنان 1971 ص 89، دفن الثعالبي بجبانة الطلبة (مقبرة الثعالبة) بأعالي باب الوادي بالجزائر العاصمة، وهي المقبرة الرئيسية للسلطة العثمانية في الجزائر.
5. عبد الرّحمن الثعالبي العلوم الفاخرة، ج1، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية رقم 850 ورقة: 3.16.45.320.

معلوماتنا شحيحة جدًا حول فترة تعلّمه وطلبه للعلم داخل الجزائر، وإن كان الثعالبي قد أسهم إسهامًا كبيرًا في التعريف برحلته العلمية، الّتي قادته إلى كثير من الدول خارج الجزائر، فالأستاذ محمّد بن عبد الكريم يعترف بأن الثعالبي تلقّى تعليمه الأوّل بمدينة الجزائر العاصمة[1]، إلاّ أنّنا لا نميل إلى هذا الطرح، ونرى بأنّه تلقّى تعليمه الأوّل على يد أبيه خاصة وأنّه من أسرة علم.

3. رحلته العلمية

يمكن تقسيم رحلته العلمية إلى قسمين: داخلية أرخها عبد الرحمن الثعالبي شخصيا وأسهب فيها.

1.3. دراسته في بجاية :

انتقل الثعالبي من مسقط رأيه بيسر إلى بجاية حاضرة العلم سنة 802هـ/1400م، صحبة أبيه فبقي بها قرابة السنة فقط، فتوفي والده ودفن هناك[2]. ومن بين أسباب اختياره لبجاية قربها من مسقط رأسه (يسّر) وشهرتها العلمية والدينية والتاريخية، علمًا أن بجاية كانت قد سبقت الجزائر وتلمسان، بوجود مدرسة عبد الرحمن الوغليسي[3]. كيف لا يتّجه الثعالبي إلى بجاية وهي قبلة العلم والعلماء، فيكيفيها فخرًا أن العلامة عبد الرحمن بن خلدون (1332–1406) قد درس ودرّس واستوزر بها.

---

1. محمّد بن ميمون مصدر سابق ص: 335، ويذهب محمّد بن عبد الكريم بعيدًا عندما قال بأن الثعالبي تعلّم أيضًا في تلمسان قبل توجّهه إلى بجاية وأنه درس على يد محمّد بن مرزوق، وهو غير صحيح إطلاقا، انظر نفسه ص 335 ـ 2. نفسه، ص 336، وعن دور بجاية العلمي الحضاري في الماضي ودورها التاريخي عبر العصور، ودورها في النهضة الأروبية، انظر مولود قاسم نايت بلقاسم، بجاية الإسلام لقنت أوروبا الرياضات بلغة العروبة، الثقافة ع 89 سبتمبر أكتوبر 1985 ص 28 ـ3. أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ج 1، ص 88.